

تكريم الإنسان في القرآن بين الدراسة الموضوعية والقراءة الانتقائية Honoring Man in the Qur'an : Between Objective Study and Selective Reading



أ.د. رضوان لخشين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية (الجزائر)
مخبر الدراسات القرآنية والسنة النبوية

المؤلف المراسل: البريد الإلكتروني: redlek21@gmail.com⁴

تاريخ النشر: 2025/12/31

تاريخ القبول للنشر: 2025/10/07

تاريخ الاستلام: 2025/01/25



ملخص: يتناول هذا البحث: (تكريم الإنسان في القرآن بين الدراسة الموضوعية والقراءة الانتقائية) موضوع تكريم الإنسان، ودراسته ووفق المنظور القرآني، ومقارنته بالمفاهيم البشرية المختلفة، وقد خلص البحث إلى أن الدين الإسلامي قد كرم الإنسان والإنسانية بشكل عام، وجعل للإنسان كرامة تخصه دون سائر المخلوقات، وهي كرامة العقل والتميز، والفطرة السوية، وجعل ذلك سبيلا لينال أعظم التكريم وأسماء وأقصاه وهو كرامة الدين والإسلام، وكرامة توحيد الله، وطاعته في الدنيا، والإيمان بالغيب والبعث والجزاء في الآخرة. فتلك هي الكرامة التامة. هذا ما يصوره القرآن الكريم من خلال آياته الكثيرة، في حين أن المفاهيم البشرية على اختلافها لم ترتفع عن مفهوم التكريم المادي الجسدي للإنسان لا غير.

الكلمات المفتاحية: التكريم، تكريم الإنسان، الإنسانية، حقوق الإنسان

Abstract:

In this research: (Honoring Man in the Qur'an: Between Objective Study and Selective Reading), I will study the meaning of honoring man in the Holy Quran, And compare that with human concepts.

The research reached the conclusion that: the Holy Quran honored man and humanity. And honored and distinguished him from all other creatures with reason, discrimination, perception and instinct.

So that this would be a way for him to attain the greatest honor, which is honoring him with religion and Islam. And obedience to God in this world and belief in resurrection and accountability on the Day of Judgment.

As for human concepts of human honor, they did not go beyond material life. And they neglected the spiritual aspect of man.

key words: honor, honoring the human being, humanity, human rights

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله المتفرد بالجلال والكمال تعظيماً وتكبيراً، نحمده حمداً طيباً مباركاً فيه كثيراً. وأشهد ألا إله إلا الله خلق فأوجد، وهدى ووفق وسدد، أنزل القرآن على النبي الأكرم وقال سبحانه قولاً عظيماً: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾. وأشهد أن محمداً عبد ورسوله، أكرم من قرأ كلام ربه ورتل، وأعظم من لكلام الله تدبر وتأمل، فكان سيد ولد آدم أجمعين، ورحمة الله للعالمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من تبعهم من أئمة العلم مفسرين ومحدثين، قدامى ومتأخرين ومعاصرين، أما بعد: فلا زال الزمان المعاصر في ظل حركاته الفكرية المختلفة واتجاهاته العقلية المتباينة يطالعنا بين الحين والآخر بكثير من الآراء التي يرى فيها المثقف المسلم شيئاً من الانحراف، وعدم الوضوح، ورغبة في تغريب الدين، ومفاهيمه، سيما إذا تعلقت تلك الأفكار والطروحات بالقرآن الكريم، تفسيراً واستنباطاً، تأصيلاً وتدليلاً، فكما أن الاستدلال بالقرآن قوي المنزع، فكذلك تبعات الخطأ فيه خطير ومفزع.

الإشكالية:

وقد كان مما استقر في ذهني من كثير من المسموعات والمقالات التي رددتها كثير من الأوساط المثقفة، أو التي تنسب إلى الثقافة تلك التأصيلات في مسألة الإنسانية، ومنزلتها، وعلاقة الأديان بها، وكان من أهم ما يدور على كل تلك الألسن اهتمام الإسلام بالإنسانية، وأنه الدين الوحيد الذي اهتم بها، وأولاهها غاية العناية والرعاية، وأنه الدين العظيم الذي كرم الإنسان والإنسانية، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوُجُوهِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70]، فهو الدين الوحيد الذي كرم كل بني آدم، فرأيت في هذا النوع من توجيه الآيات القرآنية لموافقة بعض تلك الأفكار المعاصرة المغرقة في تبجيل الإنسان والإنسانية، وهذا الطريق من الاستدلال رأيت غير مرضي ولا مقنع، لما فيه من انتقائية واضحة، وبُعد عن الإمام بمنهج القرآن الكريم في رسم المبادئ، وتقرير القيم، فأحسست برغبة قوية في بحث مثل هذه الآيات الكريم والوقوف على دلالاتها الحقيقية، في ظل منهج علمي سليم قائم على اتباع الحجة الواضحة، دون قراءة انتقائية زائغة، للوقوف على هذا الموضوع العظيم الفائدة الخطير العائدة، ألا وهو موضوع تكريم الإنسان في القرآن الكريم، فاخترت أن يكون عنوان هذا البحث وهذا المقال: "تكريم الإنسان في القرآن بين الدراسة الموضوعية والقراءة الانتقائية".

الأهداف والأهمية:

أسعى فيه إلى إظهار معنى التكريم في اللغة، على وجه العموم، ثم بيان معنى التكريم في القرآن الكريم من خلال استجلاب ما تعلق بالموضوع من آيات قرآنية، وتأملها، واستخراج هداياتها، للوصول إلى المعنى القرآني الشرعي الصحيح لمعنى التكريم الإنساني، ليتضح بعد ذلك مدى صواب تلك الطروحات والآراء، وفي أي شيء خالفت الصواب.

وما من شك أن هذه البحوث ذات أهمية بالغة لما فيها من تحري الصواب في بيان معاني تلك الموضوعات القرآنية التي استدعتها ووظفتها كثير من الكتابات والطروحات المعاصرة، بين محق يرجو بلوغ الحق والعمل به، وبين ملفق يروج باطله على المثقفين لما كان منطلقه من القرآن الكريم، ثم لما

فیه من بیان للمنهجیة العلمیة الصحیحة فی التعامل مع آیات القرآن الکریم وموضوعاته، وذلك بدراستها دراسة متکاملة وفق منهجیة منضبطة بعیدة عن الانتقائیة، منهج قائم على استجماع ما فی القرآن الکریم من آیات متعلقة بالموضوع الواحد ودراستها ککل متکامل یألف ولا یختلف، ویتوافق ولا یفترق، کما أن ما فی هذه البحوث والمقالات من دفاع عن القرآن الکریم کاف فی أهمیة وفائدتها، ولن یخلو عمل علمي معتبر من فائدة وعائدة على صاحبه، أو على القارئین.

ورجاء حسن عرض المقصود من البحث جعلت خطته على مباحث کالاتی:

المقدمة:

المبحث الأول: وقفات مع آية سورة الإسراء.

المبحث الثاني: التکریم الإنساني فی المنظور البشري.

المبحث الثالث: تقارير ومقاربات..، الخاتمة وقائمة المصادر والمراجع.

المنهج المتبع والصعوبات:

سلکت فی تقرير مسائله منهج الاستقراء والتحلیل، فاستقرأت ما تعلق بالموضوع من آیات القرآن الکریم، مع تحليلها، کما سلکت منهج التوصیف حال بیان تصور بعض الأفكار لمعنى التکریم، مع بعض التقارير والمقاربات.

وقد حاولت جهدي فی الإلمام بمتعلقات الموضوع ودلائله، غیر أني أعترف بكثير من التقصير خاصة حال تتبع الأفكار المعاصرة، فأنا غیر متخصص فیها، ولا مطالعاتي فی کتبها بالتي تكفي، فهو من الصعوبات التي حاولت تجاوزها بالاعتماد على المراجع المعاصرة فی تقرب الصورة، وتسهيل العزو. وهذا أوان الشروع فی المطلوب، والله الموفق والهادي إلى سواء السبیل، والحمد لله رب العالمین.

المبحث الأول وقفات مع آية سورة الإسراء

آية سورة الإسراء هی قول الحق سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء]، ومع هذه الآية الکریمة نقف وقفات تستجلي منها عظیم علومها، وسامق معانيها، وجليل دلالاتها. وهي ثلاث، وقفة لغویة وبیانیة.. وقفة تحليلیة، ووقفة موضوعیة، فأقول:

الوقفة الأولى: وقفة لغویة وبیانیة.

والبدایة مع كلمة ﴿وَلَقَدْ﴾ فقد جاءت الواو عاطفة ما سیأتي من تکریم وإنعام وتفضیل، على ما سبق ذكره منه، تذکیرا بالمزید من رب العبد، المنعم الکریم، ثم فی حرف (قد)، ما فیه من معاني التأكید، والتحقیق، فمجئ اللام الواقعة فی جواب القسم، ثم دخول (قد) على الماضي، مؤذن بذلك، جليٌّ فیه (1). ﴿كَرَّمْنَا﴾ (کرّم) مضاعف من (کرّم) أفاد التضعیف فیه التعدیة (2)، والنون فیه نون عظمة المنعم العظیم الرحمن الرحیم. (کرّمنا) أي کرّمه الله وکثر محاسنه وشرّفه وأعطاه عطاءً سابغاً. وقيل الإکرام والتکریم أن یوصل إلى الإنسان بنفع لا تلحقه فیه غضاضة، أو یوصل إليه بشيء شریف (3).

﴿بَنَىٰ آدَمَ﴾ وهو كل من جاء من نسل آدم عليه السلام، في كل مكان أو زمان، ومن كل ملة أو دين. وقد قال بعض المفسرين أن (بني آدم) هنا هم المؤمنون فقط، ووجهه عندهم أن التكريم مزيد الإكرام، وأما الكافر فليس له أي إكرام فأنى له المزيد فيه(4)، وفي ذلك نظر، فإن تشريف الله لسائر البشر ثابت، ثم إنعامه عليهم مشهود وفي آيات الله ثابت موجود، وما التعبير بالتكريم للكافرين إلا بالنظر إلى كثرة إنعام الله عليهم، ومزيد عطائه الدنيوي لهم، وستأتي الإشارة في الكلام على هذه الآية تفسيراً إلى كثرة ما أنعم الله به على عامة عباده من المؤمنين والكافرين ما يوضح ذلك. فلا مانع حينها من وصف الكافر بالتكريم، بالنظر إلى كثرة ما أنعم عليه به من أمور الدنيا في جسده وحياته.

﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾ من الحمل وهو "الوضع على المركب من الرواحل، فالراكب محمول على المركوب"(5). وهو عام في كل ما يحمل ابن آدم، أو يحمل ابن آدم نفسه عليه، سواء مما كان من خلق الله كالأنعام، أو من صنع البشر كعموم المراكب قديماً وحديثاً.

﴿الطَّيِّبَاتِ﴾ جمع مؤنث مفردة (طَيِّبَة) ومذكرها طيب، وهي عامة في كل ما تستلذه النفوس وتشتهيه وتحبه وتتمناه، من مأكّل أو مشرب أو ملبس، أو نعيم حسي أو معنوي. فقد وصفت آيات القرآن الكريم جملة من الأشياء بالطيبة كالأرزاق عموماً، والمأكّل والمشارب، والمكاسب، والأزواج، والزرية، والمسكن، والأقوال والأعمال، بل والحياة عموماً.

﴿وَفَضَّلْنَاهُ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أكد فعل التفصيل بالمصدر لإفادة حقيقته، ودل فعل (فَضَّلَ) بأصله على زيادة في الشيء(6)، ودل بوزنه على تمييز من الله له ورفع له على غيره(7)، "وَفَضَّلَهُ عَلَىٰ غَيْرِهِ تَفْضِيلًا: مَرَّاهُ أَيُ اثْبَتَ لَهُ مَزِيَّةٌ، أَيُ خَصْلَةٌ تُمَيِّزُهُ عَن غَيْرِهِ، أَوْ فَضَّلَهُ: حَكَمَ لَهُ بِالتَّفْضِيلِ، أَوْ صَيَّرَهُ كَذَلِكَ"(8). وبين التفصيل الذي في آخر الآية والتكريم الذي في أولها، علاقة وفرق:

- فقليل التكريم منظور فيه إلى ما يتعلق بذاته، والتفصيل منظور فيه إلى مقارنته بغيره، أشار إلى شيء من هذا المعنى ابن عاشور رحمه الله(9).

- وقيل إن التكريم ما يتعلق بأمور خلقية ذاتية طبيعية، كالعقل، والبيان والخط، وحسن الصورة، فهذا هو التكريم، وبالعقل عرف الله ووحدانيته والأخلاق والفضائل فصار بذلك مُفضلاً(10).

وأقول: إن كرم الله يتفاضل فأوله عام للمخلوقات جميعاً من كرم الإيجاد والخلق، ثم إنه سبحانه يزيد كرمه على من يشاء فيزداد تكريماً، فكلما زاده تكريماً فَضَّلَ على من لم يعط ذلك الكرم الزائد، فلا يزال الأمر كذلك حتى صار ابن آدم من أكثر خلقه تكريماً، فكان من ذلك أن فضل على كثير من الخلق، فما فَضَّلَ على غيره إلا بالتكريم الذي أعطيه، فالتكريم سبب للتفضيل، وبالتفضيل ازداد تكريماً.

الوقف الثانية: وقفة تحليلية.

جاءت هذه الآية الكريم في سياق ذكر من الله على خلقه من بني آدم كافة، فكان من ذلك: أن ذكَّروهم بتكريمه سبحانه لأبيهم آدم وخلق به بيده وإسجاد الملائكة له(11)، وكان في ذلك من الكرم ما جعل إبليس لعنه الله يعترض ويقول: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء:62]، ثم ذكَّروهم بنعمة عصمته سبحانه عباده من إضلال هذا الحاسد الوسواس، ثم ذكَّروهم نعمته على عموم الناس، وتفضُّله

عليهم بما مَنَّ به من ركوب البحر، وابتغاء الفضل والرزق فيه، وإنجائهم من أخطاره، وتذكيرهم بقدرته عليهم في كل حال سواء في البحر أو في البر، فجاء ذلك بأسلوب الاستفهام الإنكاري تنبيها على استحضار جلال الله وعدم الغفلة عن قدرته، والتحذير من أمن مكره، فإياكم أن تأمنوا مكر الله إن لم تهتدوا بهديه، وتكفوا عن معصيته، والشرك به، بعد كل تلك النعم التي مَنَّ بها عليكم، بحرا وبراً، ورزقا وأمنا، وبعد كل هذا الإنعام والتفضل ذكَّركمهم بمزيد إنعامه وتفضيله فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء:70]. ثم إنَّ كل هذا الفضل لا ينفك عن الإيمان باليوم الآخر يوم الحساب، بل إنَّ فضل الله سبحانه على خلقه سبيل من سبل التذكير بنعم الآخرة التي أعدّها للمؤمنين. فحالك يا ابن آدم في الآخرة نتيجة حالك في الدنيا ومُسبب عنه، فمن كان في الدنيا ذا تذكُّر لفضل الله وحمدٍ له على تكريمه، مستعملا ما كرمه به من عقل وتمييز وإدراك في تأمل نعمه، وشكرٍ لها، فهو المهتدي في الدنيا الفائز يوم القيامة. وأمّا من عي عن الهدى في الدنيا، وأعمى قلبه وعقله عن النظر في نعم الله عليه، فهو الأعمى في الآخرة، الضال في الدنيا عن الصراط المستقيم، والضال في الآخرة عن سبل النعيم، بل له فيها سبيل الضلالة، فيأخذ كتابه بشماله، وينقلب إلى سوء مآله(12).

إن هذا التناسب ليُظهر بجلاء مدى علاقة الهداية والضلال في الدنيا بما تفضَّل الله سبحانه به على عامة الناس من نعمة العقل والتمييز، وهي من أخص ما قاله المفسرون في معنى التكريم الوارد في هذه الآية(13)، ومن معين أقوالهم نذكر خلاصات من معاني هذا التكريم في هذا المقام فأقول:

يقول الله سبحانه، وهو أصدق القائلين: ﴿وَلَقَدْ﴾ إيذانا بتحقيق المذكور، وتأكيدا له، فقد كان من مزيد رحمة الرحيم أن أكد لهم كلامه العظيم، وزاده تأكيدا وتحقيقا بالقسم المقدر، كل هذا تعظيما لما سيذكره سبحانه، قائلا: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ أي شرفناهم وأعلينا شأنهم وأتيناهم من خصال الشرف والرفعة ما فاقوا فيه سائر المخلوقات، وهاهنا تنافست قرائح العلماء في استجلاء صنوف من ذلك التكريم، فقالوا الصواب الكثير، ولم ولن يحيطوا بكل معانيه، فكل ما قيل وسيقال من قبيل التمثيل(14)، فأنى لهم الإحاطة بما نسبته الله الكريم إلى فعله، ونون عظمته، وواسع إنعامه فهو القائل: ﴿وَأَتَّكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:34]. ولما تعلق وصف التكريم بـ (بَنِي آدَمَ) وهو كل من جاء من نسله دلَّ ذلك على أن ما كرمهم به وصف يشترك فيه كل من صدق عليه أنه من ذريته، رجالا ونساء، صغارا وكبارا، مؤمنين وكفاراً، في قديم الزمان وحديثه، ومن أوله إلى آخره، أي كل (إنسان) فكان من صنوف هذا التكريم: أن كرمه بأن خلقه فأبدعه، وأحياه فأوجده، ولم يجعله عدما. وكرمه بأن خلقه من روح وجسد، من طين معلوم يناسب الأرض التي استخلف فيها بالعمارة، ومن عنصر سماوي يناسب ما أمر به من مهمة العبادة. وكرمه بأن خلقه على فطرة سليمة، ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ إِلَيْنَا فِطْرَةَ النَّاسِ عَلِيمًا﴾ [الروم:30] وأودع فيه من الخصال والخلال ما يضمن صفاء روحه بسلامة تدنيته، وحُسن استسلامه لخالقه. ويضمن حياة جسده، وكفاية رغباته، واستمرار نسله، وسلامة حياته.

وكرمه بأن خلقه في أحسن صورة وأكمل تقويم، فلست ترى في الكائنات أجمل منه، ولا هو رأى أجمل من نفسه، وليس يرى في خلقته عضواً أو آلة في غير موضعها المناسب لها. قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ

الْمَخْلُوقِينَ ﴿١٤﴾ [المؤمنون]، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ﴿١﴾ [التين]، ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿٧﴾ [السجدة]، ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى ﴿٢﴾ [الأعلى].

ثم زاده تكريما عظيما فجعل له العقل والتمييز وخصه به من دون سائر العجماوات والبهائم، فكرمه بالعقل عطاء وجعله مناط التكليف ابتلاء، ثم يسر له السمع والبصر ليكتمل له الإدراك والتعلم بعد أن أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئا فعلمه ما لم يكن يعلم. قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ﴿٣﴾ [الإنسان]، وقال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ [النحل]، وقال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ﴿٥﴾ [العلق].

كرمه بأن جعله أجناسا تتمايز في الألوان، وغاير بينها في لسان البيان، فهو به يُعرب عما في نفسه ويتواصل به مع غيره، فاختلقت الألسن بين الناس عبرة وعظة ودليل عظمة. قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿١﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٢﴾ [الرحمن]، وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلْقَ الْبَشَرِ وَالْوَنُكُوتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٣٣﴾ [الروم]. وكرمه بأن خلق له ما في السماء وما في الأرض قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29]، وقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ عِبْدًا رَبُّكَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [القمان]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الجاثية]. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النحل].

وما أفلاك السماوات ونجومها وما الأرض وفجاجها إلا آيات وهدايات لك يا ابن آدم، قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ إِلَى الْآيَاتِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٢﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٣﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٤﴾﴾ [الغاشية]، نصيبها لهم جميعا فاهتدى بها العاقلون، وعمي عنها الجاهلون قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِلْأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿١﴾﴾ [آل عمران]، وقال أيضا: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الجاثية] (15).

كرمه بأن خلقه عبدا عباداة الاضطرار، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد]، وأعطاه من الوسائل والنعم ما ابتلاه به في عبادة الاختيار، فقد خص الله سبحانه الجن والإنس بالتكليف، فقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات].

ثم بعد كرم الإيجاد والإمداد كرمه بإرسال الرسل لبيان تفاصيل العبادة، وسبل السعادة. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36]، وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا

وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢١﴾ [فاطر]، وقال أيضا: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَعَلَّ يُكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء:16].

وبعد كرم الإرسال وهداية البيان، كَرَّمَهُ فجعله كائنًا حرا يختار أفعاله، فلا إكراه له على شيء، فقال سبحانه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة:213]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمَّ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف:29]، وقال تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت]. فكان كل ذلك الذي ذكرت بعض أجناسه بعضها من إكرامه وإنعامه على عامة جنس الإنسان، ولو ذهبوا جميعا يعدون نعمة الله ما أحصوها قال سبحانه ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل].

هذا، وقد سبقت الإشارة إلى أن من المفسرين من جعلوا التكريم هنا للمؤمنين، دون الكافرين، فإذا لم نقبل بهذا القول دافعا لغيره من الأقاويل، فلا مانع من أن يكون مقبولا على وجه من التأويل، وذلك أن التكريم تعلق بعموم بني آدم ومن تأمل أحوال الناس في كتاب الله الودود، وتأمل ما هو في الواقع المشهود أيقن أن الله سبحانه كرم عامة بني آدم مؤمنين وكافرين تكريما بكثرة الإنعام، ثم زاد غيرهم من أهل الإيمان تكريما فوق سائر الأنام، فكان من مزيد عطائه لهم وامتنانه عليهم أنهم: ما وفقهم إليه من الإيمان، وما تفضل عليهم به من هداية الكتب السماوية والقرآن، ولئن تلذذت الأجساد بالأكل والشراب، فلقد فتح للأرواح في عبادته والقرب منه كل باب، فمتى شاءوا وقفوا على بساط مناجاته، وأنهم على أي حال من أحوالهم إذا أرادوا أن يسألوه أو يطلبوه، سألوه وطلبوه، وأنهم مهما بلغت ذنوبهم غفر لهم إن استغفروه، ولو عادوا إلى الذنب ثم تابوا قبل منهم على ما كان منهم. ومن عظيم تكريمه لهم وهو العلي العظيم أنهم إذا ذكروه يذكرهم، وإن صلوا على نبيه صلى عليهم، وأنه يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، وأنه سبحانه جل جلاله لما رضوا عنه رضي عنه، فما أعظمه من تكريم من رب عظيم كريم، لا إله إلا هو(17). فكل هذه تكريمات لأهل الإيمان، فوق كرامة عامة بني الإنسان.

* ثم قال سبحانه: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْأَرْحِ وَالْبَحْرِ﴾ فخص الله بالذكر والتنصيب بعض تكريمه وإنعامه، فيسر لك ما يملك يا ابن آدم في البر والبحر، فذل لك الأنعام فجعلك تركيها، ولو شاء أن يجعلها غير مستأنسة لما كان لك ذلك، وجعل البحر ماء عظيما كبيرا تطفوا عليه بعض الجمادات فتيسر لك بذلك أن تحمل نفسك عليها، قال سبحانه: قال تعالى: ﴿وَاللَّعَنَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ وَمَتَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٥١﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [النحل]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٦١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٦٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمِنْهَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يس]. وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْخَلِيفِ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ وَاللَّيْلِ الَّذِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ [البقرة:164]. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً نَّجْيًا وَتَرَى الْفُلَ مَوْلاَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [النحل].

ولم تحدد الآیة ما الذی یحملک یا ابن آدم وأطلق الحمل فیها فدل على عموم ما تعلق به فحین ترى القدماء من المفسرین (18) یذكرون الخیل والبغال والحمیر والفلک والسفن الجاریات، ترى المتأخرین والمعاصرین منهم (19) یذكرون المناطید والطائرات، والبوارج والباخرات، والغواصات، وصدق الله العلی العظیم الذی قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل).

* ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ونظیرها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: 32]، قد سبقت الإشارة فی الوقفة اللغویة أن القرآن الکریم وصف کثیرا من الأمور بالطیبة، منها الحسی ومنها المعنوی، والطیبات هنا إنما تتناسب مع ما علقت به، ألا وهو ابن آدم على العموم، فکل ما رزقه الله وأباح له الانتفاع منه لم یکن إلا طیبا "من المآکل والمشارب والملابس والمناکح. فما من طیب تتعلق به حوائجهم إلا وقد أکرّمهم الله به ویسرّه لهم غاية التیسیر" (20)، فكان من ما رزقنا الله ما جاء فی قوله: ﴿وَيَجِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾ [الأعراف: 157]، وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: 4]، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 182]، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا يَتَمَنَّوْا الْخَبِيثَاتِ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [البقرة:]، ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران:]، ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: 26]، ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الحج: 24]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: 10]، ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْجُبُ بَنَاتُهُ بِأَذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: 58]، ﴿بَلَدٌ طَيِّبٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ [سبا:]، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: 24]، ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: 22]، فقد جعل الله الطیب فی کل ما مکن ابن آدم منه، فمنهم ما رضي بالطیب مما آتاه الله سبحانه، ومنهم من اختار الخبث والخبائث. فلا وجه حینا لتخصیص رزق الطیبات فی الآیة بالمآکل فقط (21)، والعلم عند الله.

* ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (٧) أي أن بني آدم الذین کرّمناهم کل هذا التکریم، وسخرنا لهم کل تلك المسخرات من المخلوقات، قد فضلناهم فأعلینا منزلتهم ورفعنا شأنهم، وكانوا فوق کثیر ممن المخلوقات منزلة عند الله سبحانه. فاقراً یا ابن آدم هذا الكلام من ربك العظیم، واعترف له بفضله علیك، وداوم حمده على ما أنعم به علیك، فبعد ذلك التکریم وکل ذلك العطاء العظیم فضلك، وأعلى منزلتك، ورفع درجتك فوق کثیر من مخلوقاته، فاللهم لك الحمد حمدا کثیرا طیبا مبارک فیه. هذا جملة ما یمكن ذكره من كلام ضمن هذه الوقفة التحلیلیة لهذه الآیة لنصرف الكلام إلى وقفة مهمة أخرى.

الوقفة الثالثة: الوقفة الموضوعیة.

وضمن هذه الوقفة سأتناول ما دلّت علیه الآیة فی موضوع تکریم الإنسان بوجه من الدراسة لموضوعها، ولاهتداء بما ورد فی الآیة القرآنیة الأخرى مما یتعلق بها، لتکتمل الرؤیة القرآنیة لهذا الموضوع، وأجعلها فی نقاط کالآتی:

الأولى: القرآن الكريم كلام الله الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]، فلما كان من عنده كان هو الحق الذي لا باطل فيه، والجد الذي لا هزل فيه، فهو كلام العظيم العلام ذي الجلال والإكرام، الذي كرم بني آدم ومع تكريمه لهم وصفهم بجملة من الصفات التي جعلها فيهم، ووصف الإنسان بما خلقه عليه وجعله فيه، فقال سبحانه في صفات خلقه: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿[السجدة]، وقال: ﴿أَلَمْ خَلَقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]، فبيان مهانة أصله تجعله يعرف قدر نفسه، ويعرف نعمة ربه وخالقه عليه.

ودلت كثير من الآيات على كثير من صفاته وما جعل فيه، فوصف بأنه لم يكن شيئاً مذكوراً، وأنه خلق ضعيفاً، وأنه كان ظلوماً جهولاً، وأنه ذو خصام مبين، وجدال كثير، وذو كفران وطغيان، وكنود جحود، وذو حرص وهلع وعجل، وذو حب للمال في طلبه، وذو تقتير عليه في إنفاقه. وهي كلها من الصفات التي تدل على خلل فيه، ونقص كبير يعتريه.

فدل جميع ما تقدم على عدم التنافي والتعارض بين ما كرم الله سبحانه به الإنسان، وبين ما وصفه به، وأن هذه الآيات تهديك يا ابن آدم لتعرف حقيقتك، وحقيقة منزلتك، وحقيقة تكريمك، فما كرمك الله به لا يمنع من أن تكون موصوفاً بتلك الصفات التي هي فيك، وما كانت فيك إلا رحمة وحكمة، فالكمال المطلق لله الواحد الأحد، وما هو فيك يا ابن آدم دليل نقصك الذي هو حقيق بك، وأن من كرم الله عليك أن هداك لما يصلح جانب النقص فيك، فكرمك بأنواع من التكريم، فجعل لك العقل والتمييز، لتدرك به الصواب والخطأ، والحسن من القبيح من أمورك وأوصافك وأحوالك، وزادك تكريماً بأن هداك لدينه، وأيدك بوحيه على رسله، ليتتم لك الهدى، ويوضح لك الصراط، ويُعلمك ما جهلت، ويهديك إلى ما عنه ضللت.

الثانية: خلق الله السماوات والأرض دليلاً على عظمته، وجلاله، وعلمه وإتقانه، ورحمته وحكمته، وجعل حياتك يا ابن آدم على هذه الأرض، حياةً دنيا، وحياةً أولى، لم يجعلها دار قرار ولا زمان دوام، بل هي عنده دار زوال، ومحل ابتلاء، ابتلى فيها من كرم من مخلوقاته بعبادته، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وتبعاً لمعنى هذه الآية، دلت كثير من الآيات القرآنية على أن عامة الناس من بني آدم عند الله فسطاطان: فسطاط إيمان، وفسطاط كفر، قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِّمُ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢]، وجعل سبحانه وتعالى للمؤمنين به حُسن الذكر، وجميل الوصف، ومزيد التكريم، وعظيم المنزلة عنده في الدنيا والآخرة. قال سبحانه: ﴿أَفَجَعَلَ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [الفلم: ٢٥]، ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١٢]، فجعل لهم البشري في الدنيا والآخرة، وجعل فضله لهم، وأجره العظيم لهم، ومُنَّته عليهم، وهم المفلحون، وهم الذين: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ووصفهم الجميل في القرآن الكريم كثير.

وجعل لغيرهم من الكافرين سيئ الذكر وقبيح الخلق ووصف المهانة والذلة، وخسيس المنزلة في الدنيا والآخرة، قال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ [النحل: 60] فهم الذين توعدهم بيوم العسير والعذاب

الأليم الممين، وهم الذين لا يحيمهم الله، ولا يهديهم، ولا فلاح لهم في الدنيا والآخرة، بل لعنهم وطبع على قلوبهم بكفرهم، وختم على قلوبهم وسمعهم وجعل الغشاوة على أبصارهم، وأذلهم، وعذبهم في الدنيا وقطع دابرهم. هذا، والحال أنهم كلهم جميعاً مؤمنين وكفاراً هم من بني آدم الذين عمهم بالتكريم الوارد في آية الإسراء، فكان هذا الملحظ أيضاً دافعا قويا للبحث عما يهدينا إلى سبيل الجمع، ووجه الربط بين ذلك التكريم الذي كانوا في عمومته، وما خص به كل جنس منهم من الوصف.

الثالثة: قد صار من الضروري جدا الوقوف على سبيل الجمع بين كل تلك الهدايات، على وجه تنتظم به الآيات البيّنات، وسبيل ذلك في الآيات مُوضَّح وفي أي من القرآن الكريم مُصَرَّح، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾ [الحجرات:13] فالعبرة بتكريم الله تعالى وإهانتته، فمن أكرمه الله فلا ممين له، و﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج:13]، وإنما أكرم الله سبحانه عامة بني آدم إكراما عاما دنيويا، ثم أكرم فوق ذلك عباده المؤمنين إكراما دنيويا وأخرويا، فكانوا هم المكرمين، فلا إهانة لهم ولا هوان عليهم، وأما من رضوا بتكريم الدنيا واطمئنوا به، وركنوا إليه، وكان شأن الدنيا وما تعلق بها عندهم هو حقيقة التكريم والمهانة، فهم الذين وصفهم الله بقوله: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ ﴿[الفجر:16]﴾ تلك نظرتهم وذلك تصورهم، الكرم عندهم متاع الدنيا وزينتها، ولم يوفقوا إلى ما زاد عليه، فهم الذين رضوا بالدنيا والدون، وهم الذين حرّموا مزيد التكريم، الذي هو أجدره بالطلب وأحقه بالوصف، وهو الإيمان بالله سبحانه، وما يتبعه ويلزم عنه، فكانوا بعد ذلك هم الذين أهان الله تعالى، وكانوا هم الذين جعلهم الله أسفل سافلين، وهم الخاسرون، وهم الذين ضلّ سعيهم في حياتهم، وعيشهم، وكانوا فيها كالأنعام غاية همهم المأكّل والمشرب، وهم الذين لم ينفعهم ما كرمهم الله به من عقل وتمييز، ورضوا بحال البهائم فكانوا أضلّ منها سبيلا، وأحط منها منزلة، ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ ﴿[الأعراف:17]﴾. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ ﴿[محمد:17]﴾. فكما أن الله هو من كرم بني آدم فهو أيضا الذي جعلهم أسفل سافلين إن لم يؤمنوا بالله ورسله، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ﴿[التين:1]﴾.

وكما أن الله هو من كرم الإنسان فقد جعله في خسر إن لم يؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل صالحا، قال سبحانه: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ ﴿[العصر:3]﴾. وقال: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ﴿[يونس:33]﴾، وقال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاثِلِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبَّطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُفِيزُهُمْ يَوْمَ الْعِلْمَةِ وَرَبَّنَا﴾ ﴿[الكهف:10]﴾. وكما أن الله هو من كرم بني آدم فقد جعل عليهم الذلة والمهانة إن لم يكونوا من المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَنِعَزُّ مَنْ تَشَاءُ وَنُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ ﴿[آل عمران:26]﴾. وقال: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ﴿[النساء:33]﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ ﴿[المجادلة:20]﴾، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿[المنافقون:8]﴾.

وكما أن الله هو من كرم بني آدم فقد جعل لهم وصف المذمة إن لم يعملوا عقولهم التي أكرمهم الله بها لتهديمهم إلى الإيمان قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ١٦].

وكما أن الله هو من كرم بني آدم فأباح لهم الطيبات أكلا وشربا فقد جعل لهم وصف البهائم إن لم يهتدوا لشكر ربهم عليها وحمده والثناء عليه بها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَمْتَحِنُونَ وَيَا كُونُ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَمُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٦]، ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ اللَّيْلِ وَالْأَيَّامِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَلَّا نَتَّعِمُ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧]، وكما أن الله هو من كرم بني آدم فجعل له الحياة الدنيا يعيش ويحيى فيها، فقد جعلها عليه حياة الضنك إن لم يكن فيها مؤمنا مصدقا قال تعالى: ﴿تَمَنَّى اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [٢٣] وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى ﴿ [طه: ١٢٢].

فتكريم عموم بني آدم الوارد في سورة الإسراء تكريم دنيوي، وتكريم الدنيا أول منازل التكريم، ثم فوقه منازل بعضها أرفع من بعض، فبعد كرم الإيجاد من العدم، وكرم سلامة الفطرة والعقل، يُكرم الله سبحانه ابن آدم بأن يكون على الدين، وأن يكون من عباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٥]، ثم يزيده إكراما بأن يكون على تقوى من الله فيزداد كرمًا عند الله ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13]، وحينها يتميز المؤمنون، فمنهم الظالمون لأنفسهم، ومنهم المقتصدون ومنهم السابقون بالخيرات، ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٢٣]، ثم يزداد السابقون كرمًا عند الله سبحانه ويزدادون من إنعامه فيكون منهم من قال الله فيهم: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

ثم يختص بعض المؤمنين من عباده بمزيد كرم فيجعله منهم الأنبياء قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ [مريم: 58]، ثم يزداد كرمه على الأنبياء فيفاضل بعضهم على بعض، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: 55]، لينتهي الكرم والإنعام إلى أولى العزم من الرسل: ﴿فَأَصْبَحَ كَمَا صَبَرَأُولُوا الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35]، وأعلى مقامات التكريم والأرفع منها، وأوسطها منزلا والأكمل حتى كان فردوس جنة تكريم رب العالمين لعباده المؤمنين، ما اختص به نبينا الحبيب المصطفى ونبية المجتبى فكان أحب خلقه إليه، وأكرمهم لديه، وأقربهم منزلة منه. سبحانه ما أعظم كرمه، وما أعظم إحسانه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ١].

إذا تقرر لدينا من خلال ما سبق أن التكريم الوارد في سورة الإسراء إنما هو تكريم دنيا، فهو حينئذ يتناسب مع منزلتها ومقدارها عند الله سبحانه الذي خلقها:

فقد جعل الحياة الدنيا مكثا قصيرا، قال تعالى: ﴿قَلَّ كَمَ لَيْسَتْ فِي الْأَرْضِ عِدَّةٌ سِنِينَ﴾ [١٣] قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَسَلِّ الْعَادِينَ ﴿١٣﴾ قَلَّ إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ [المؤمنون: ١٣]، ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [١٥] ﴿ [يونس: ١٥].

وجعلها متاع غرور فان وزائل فقال: ﴿ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ١٥﴾ [آل عمران]، ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْغُرُورِ ١٥﴾ [آل عمران]، ﴿قُلْ مَتَعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْهِمُونَ فَتِيلًا ١٧﴾ [النساء]، ﴿فَمَا مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٢٣﴾ [التوبة]، ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ٢٦﴾ [الرعد].

ثم هي لمن أعرض عن الله إنما هي لهو ولعب وحياة ضنك ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ٣٥﴾ [طه]، ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ٣٦ مَتَعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ٣٧﴾ [آل عمران]، ﴿أَعْلَمُوا أَنَّهَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَشَلِّ عَيْنٍ عَجَبٍ الْكُفَّارُ نَبَأَتْهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فِتْنَتُهُ مُصَفَّرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَعْفَرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْغُرُورِ ٥٠﴾ [الحديد].

ولو كانت عند الله ذات مقام لما مكن منها من كفر به، وخالف أمره فأشرك به، وركب كل سبيل إلى معصيته، فما أبقاهم عليها، ورزقهم فيها، ومكنهم منها، إلا وهي شيء مهين عند خالقها لا شأن عنده بمن أخذها أو أعطىها قال تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِجُهُمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ٥٠﴾ [الحجر]، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ٥١﴾ [محمد]. ولما دعا إبراهيم ربه بالرزق في الدنيا للمؤمنين، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ٥٢﴾ [البقرة].

وفي مقابل كل ذلك جعل الله سبحانه الآخرة ونعيمها خير من الدنيا فقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ٦٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ٦٧﴾ [الأعلى]، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ١﴾ [الضحى]، وجعل سبحانه نعيم الآخرة باق ونعيم الدنيا قليل فان فقال: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ٩٦﴾ [النحل: 96]. ولما كانت الدنيا للجميع، خص الآخرة للمتقين، والصالحين فقال سبحانه: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٢٢﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكُمْ لَمَّا مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ٢٥﴾ [الزخرف].

وأمر بالمسابقة إليها والمصارعة، وحث فيها على المنافسة، فقال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ٢٣﴾ [آل عمران]، ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ٢٤﴾ [الحديد: 21]، ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ ٢٥﴾ [المطففين].

إن في كل الذي تقدم ذكره آيات كثيرة من كتاب الله، اقتصرنا على بعضها، وفي السنة أيضا أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من معين القرآن الكريم، ترد عليه وتصدر منه، فهو صلى الله عليه وسلم الذي فهم عن الله سبحانه، وتدبر كلامه، وعلم مقام الدنيا من الآخرة، وأمره ربه ببيان كلامه للناس، فكان مما قاله صلى الله عليه وسلم: «أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونَةٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ» (22)، وقال: «... وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَرْنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا قَطْرَةً أَبَدًا» (23).

وجعل بعض العبادات التي يحقرها ابن آدم خير من الدنيا وما فيها، قال صلى الله عليه وسلم: «رُكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» (24). وجعل قليل متاع المؤمن في الجنة خيرا من الدنيا ومن عليها، فقال صلى الله عليه وسلم: «مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، ...» (25). وقال: «غَدُوَّةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسٍ أَحَدِكُمْ، أَوْ مَوْضِعُ قَدَمٍ مِنَ الْجَنَّةِ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ

نِسَاء أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الْأَرْضِ الْأُضْيَاءِ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا - يَعْنِي الْخِمَارَ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» (26). وكل ذلك يا ابن آدم مقرر لحقيقة هذه الدنيا في المنظور الديني، والرؤية القرآنية. ومن الملح التفسيرية في هذا المعنى تلك الآيات القرآنية التي تشوقت الأذهان حال قراءتها وتأمل سياقها إلى ذكر الدنيا فيها، وذكر خبر عنها، إلا أن الله الجليل لم يذكرها ولم يشر إليها، بل مر عليها القرآن الكريم مروراً مشعراً بعدم الاهتمام بها، وهوانها على خالقها فقد ذكّر سبحانه عباده بمزيد فضله، وعظمته المتجلية في خلق ابن آدم، وخلق الإنسان، وبعد ذكر مراحل خلقه بإسهاب، تشوّف الذهن إلى ما بعد خروجه إلى هذه الحياة، ليتفاجأ أن الله رب العالمين بعد مدح نفسه وأنه أحسن الخالقين حذرَكَ يا ابن آدم يومَ موتك وبعثك وحشرك فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْثَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مَضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمَضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المؤمنون]، فتأمل واعتبر يا ابن آدم حال الدنيا التي لم تستحق عند الله أي ذكر. وتأمل مثل ذلك قوله تعالى: ﴿مِنْ نُّفُثِهِ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس].

كل هذا الذي سبق يجعلنا نوقن أن تكريم الله تعالى لبني آدم وعموم الناس رغم عظيم مقامه، وجزيل نواله إلا أنه لا يساوي عند الله إلا قدراً يسيراً، فهو أدنى مراتب التكريم، وأشملها وأعماها، فمن رضي به، وقنع به فقد قنع بالدين من الأمور، ومن جعله غاية ما ينظر إليه من التكريم، فقد أخطأ التصور والحكم، ومن عظم هذا المقام من التكريم فوق حقه فقد خالف الشريعة والدين الذي جعله أقل المراتب، ومن أراد تجميل صورة الإسلام أمام الديانات والحضارات بتضخيم ذلك التكريم فوق حقه فقد خان وما نصح لنفسه ولا لغيره من الناس، إذ عظم ما لم تعظمه الشريعة، ورغب فيما حقرته، وزين الشريعة والدين بما هو أقل زينتهما، بل ما جاء في القرآن ذمه إن أشغل وألهى عن الإيمان بالله وبما جاء عن الله، وعن تصديق رسله وما أخبروا به وما أمروا به.

المبحث الثاني: التكريم الإنساني في المنظور البشري.

الإنسان هو ذلك الكائن الذي تُوجُّ فوق كل الكائنات بالعقل والتمييز والإدراك، مما به ساد على غيره وسخر به المادة، ونظّم به حياته الذاتية والاجتماعية، ولئن كان هذا الملحظ الأخير في عموم المخلوقات والكائنات التي تسوقها فطرتها إلى تدير شؤون حياتها، فقد كان الإنسان أولى من يكون على ذلك، لاجتماع دافع الفطرة والعقل في تكريسه وتأطيره وتنظيمه، فكان من ذلك أن تواضع البشر على جملة من القوانين والنظم التي تسوس حياتهم في مختلف أحوالها وأطوارها، سواء أكانت تلك النظم والقوانين ذات سمة دينية، أو دوافع بشرية، تلك القوانين والنظم هي ما كان النواة الأولى لما يسمى "قانون الإنسان أو قانون حقوق الإنسان"، ذلك القانون هو الكفيل بحفظ حياة الناس وبيان حقوقهم وواجباتهم، وهو الموضح عن ماهية الإنسان في فكر الإنسان، وهو ما سنحاول تتبع مفهوم تكريم الإنسان فيه في هذا المبحث.

لا شك أن تتبع تاريخ التقنين الإنساني بحثاً عن بداياته، يذهب بنا بعيداً في الزمن الأول الذي وُجد فيه الإنسان، وقد دلت الهدايا القرآنية، والشرائع السماوية، وتاريخ البشرية، أن الناس جميعاً أبناء آدم، أول البشرية، والأب الأول للإنسانية، كان بشراً مخلوقاً، خلقه الرب العظيم الذي أوجده وأوجد هذه المخلوقات

من الأرض والسموات ليعيش عليها، ويحيى فيها، وينتفع منها، خلقه الله الكريم فكرمه وهياًه لما خلق له من عمارة واستخلاف، فأودع فيه الفطرة السليمة، والغريزة الدافعة، والقيم المثلى، والإدراك والتميز بين الصواب والخطأ.

هذا التأصيل لفكرة العلاقة بين النظم والقوانين والإنسان القديم هو الذي تدل عليه شواهد التاريخ، وامتداده إلى الوقت المعاصر، وهو ما يتبناه الفكري الديني، القائم على الإيمان بالوحي والأخبار والعلم، غير أنه قد ظهرت في الأزمنة المتأخرة من تاريخ البشرية أطروحات فكرية، ونظريات فلسفية، تتبنى أفكاراً أخرى وتبني عليها رؤيتها في تشكل تلك النظم والقوانين التي سيرت حياة الإنسان. أكثرها لا يعارض الفكر الديني من حيث الأصل، إلا ما كان من النظريات الإلحادية القائمة على مبدأ اللاخالق، وأن العالم موجود من غير موجد فهذه الطروحات الفكرية أوجدت لنفسها تفسيرات عشوائية لمنظومة القيم والأخلاق الفردية والاجتماعية التي جعلت الإنسانية تتواضع على القوانين والنظم المؤطرة لحياته الفردية والاجتماعية والدولية.

فحينما يقرر الفكر الديني أن النواة الأولى للقوانين الإنسانية وحقوق الإنسان نشأت مع الإنسان نفسه من خلال ما أودعه الله الخالق فيه من فطرة عامة في البشر جميعاً، فهي التي تجعلهم على رأي واحد مشترك في حب قيم الخير والعدل والإنصاف، والحب بكل أنواعه من حب الجمال، وحب التعاون وحب الرحمة وحب الإصلاح، وفي المقابل تجعله يبغض الظلم والشر والاعتداء والقتل والاستبداد، والبغى، فتلك القيم تكتسب صدقها وصوابها من ربانية مصدرها، وتكتسب لزوم الامتثال لها من قيومية الله الخالق المعبود المطاع في الأمر والنهي، فتجعل الإنسان بعد ذلك يسعى لتنظيم حياته الفردية والاجتماعية على ضوء ما يتلاءم وينسجم مع هذه الفطرة، وما يحقق صلاحها، وما يضمن بقاءه وسلامته.

حينما يقرر الفكر الديني هذا، نجد في المقابل الفكر الإلحادي النافي للربوبية والخالقية يعتنق وجهة من الرأي تجعل ما يسمى بالقيم الفطرية والقوانين والنواميس الفطرية جملة من المفاهيم الاصطلاحية التي استطاعت البشرية الاهتداء إليها بعد تطوّر أنماط تفكيرها، وطول الزمان وكثرة الممارسة، أي أنها وجدت بعد فقدان طويل، ومثل هذه القيم الاصطلاحية لا تكون لها تلك المصدقية واللزومية في التعامل والتقنين فهي أمور نسبية ليس أكثر. وعلى هذا الأساس فليس للإنسان الحديث عن تلك القيم والحقوق إلا بعد أن يستقر الإنسان إنساناً خلقة وتفكيراً، ثم تأتي عليه متغيرات الحياة الفردية والاجتماعية لتصنع فيه شيئاً مما يسمى فكراً اجتماعياً، وحينما يتنازع الأفراد الحقوق يضطر لوضع نظام يحكم بينهم، ليرعى الحقوق ويبعد التنازع ويضمن استمرار الحياة، ورغم كل هذا فهي معرضة للنسبية من حيث ذاتها فضلاً عن زمانها ومكانها.

وهنا أجد من الضروري التنبيه إلى أن ذكر هذين النمطين من التفكير ليس إقراراً بالفكر الإلحادي، وإنما ذلك لبيان أصل استمداد جملة من الأفكار والنظم الأخلاقية التي ستأتي الإشارة إليها، والتي تحاول البرهان لنفسها والتدليل على صدقيتها من خلال هذا الطرح الإلحادي المتناقض (27).

إن المتعارف عليه في تاريخ بدايات قوانين الإنسان وحقوقه يرجع إلى عصور ما قبل التاريخ، فتذكر بعض الموسوعات الرقمية أن معالمها تظهر فيما وجد من قوانين ونظم تنسب إلى ملوك تلك الحقب القديمة، ابتداء من إصلاحات "أوروكاجينا" حاكم "لغش" إحدى المدن السومرية، نحو سنة 2350 ق م، وبعده الحاكم

"أورنامو" السومري نحو 2050 ق م، الذي تنسب إليه جملة من القوانين والنظم، ومرورا قوانين "مملكة أشنونة" نحو 2028 ق م، وقانون "حمورابي" 1780 ق م (28). ولئن ذكرت بعض الموسوعات هذه الأسماء وتلك المدن والتواريخ التي تنتمي إلى حضارة الشرق الأدنى الفارسية والرومانية، فما من شك أن إنسان الشرق الأقصى في الحضارة الصينية والهندية القديمة قد كانت له جملة من القوانين والنظم.

لا شك أن الكلام في قوانين الإنسان وحقوقه من حيث تقنينها وتفعيلها في الناس إنما هو شأن الخاصة من الناس، ذلك أن القوانين والنظم هي الإطار الفكري العادل، والميزان الحكيم الضابط لعامة الممارسات الفردية والاجتماعية في المجتمع، وما شؤون الحكمة والعقل والتدبير إلا من اهتمامات ومسؤوليات رجال الدين والفكر والسياسة، اتخاذا وتقنيناً، ضماناً لحسن الحياة الفردية والجماعية.

ولم تزل القوانين الإنسانية الضامنة لانتظام حياته وضمان حقوقه وكرامته، تتطور وتتلور ما بين كلام رجل دين ورأي فيلسوف، ورجل اجتماع ورأي سياسي، وفي ظل النمو السكاني الهائل الذي عرفته القرون المتأخرة للبشرية، وما كان فيها من ثورات فكرية وصناعية وعلمية كانت كفيلة بتسهيل سبل التواصل فيما بينها، وما أعقب ذلك من حروب ونزاعات إقليمية ودولة، كانت وبالا خطيراً وغير مسبوق على الإنسانية عموماً، وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى والثانية، التي أسفرت عن جملة من القرارات الدولية كان من أبرزها مما يتعلق بالقوانين والنظم "ميثاق حقوق الإنسان".

وذلك أنه وبعد الحربين العالميتين، وما تميزتا به من شراسة وقوة تدميرية راح ضحيتها ما يقارب 200 مليون من البشر، استفاق الضمير الإنساني من هول الفاجعة، وراح يسعى لوضع جملة من التدابير والقوانين التي تحفظ حقوق الإنسان وكرامته، وانبثق الضمير الإنساني والعقل البشري حينها عن اتفاقيات جنيف الأربعة سنة 1945 م، وبروتوكولاتها المتممة، فكانت البداية ثم انتهى الأمر بميثاق الأمم المتحدة الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة 1948 م.

وقد كان هذا القانون خلاصة الأفكار البشرية وقمة ما تراه من حقوق للإنسانية، وقد ذكرت بنوده جملة لا بأس بها من الحقوق الإنسانية الكفيلة بضمان كرامته.

فهو "المثل الأعلى المشترك الذي ينبغي أن تبلغه كافة الشعوب وكافة الأمم" (29). وهو القانون الذي سيكون بما تضمنه من حقوق ثابتة ومتساوية مشكلاً "أساس الحرية والعدل والسلام في العالم" (30)، فبحسب ما تضمنه فهو القانون الذي يرى: "جميع الناس أحرار متساوين في الكرامة والحقوق" (31)، منذ الولادة وبين "ما لكل إنسان على وجه المعمورة من حقوق وحرّيات متساوية لا يمكن تجريده منها" (32).

فكان بذلك القانون الذي زود "الشعوب في جميع أنحاء العالم بأداة قوية لمكافحة الظلم والإفلات من العقاب، وإهانة كرامة الإنسان" (33). هنا يجدر بنا الاطلاع على هذا القانون الإنساني الذي ضمن كرامة الإنسان، لتلمس جملة ما وضعه من قوانين وما يرسم وراءها من مقاصد.

إن أي صاحب نظر وفكر يطلع على قانون الأمم المتحدة، يرى بعين اليقين أنه قانون مادي بامتياز فهو لم يخرج في كل فصوله وفروعها عن ضمان شؤون حياة الشعوب المادية فحسب، ك: الحرية والمساواة في الحقوق كالحق في الحياة والأمن، والحماية القانونية، وحق التملك، والتدين، وحرية الرأي، والحق في العمل

والراحة، والحق في التعليم، فهي في جملتها لا تخرج عن إطار الحياة المادية بما يفهم منه أن كرامة الإنسان في المنظور الأممي إنما هو ضمان الحياة السعيدة في شقها الجسدي الجسماني، وإطارها الزمني حال حياته، فهي أقصى ما تسعى إليه جهود البشرية عموماً. فهي حينئذ بحسب ما سبق تقريره من رؤية دينية شرعية قرآنية لمفهوم التكریم، لم تتجاوز التكریم الرباني الدنيوي للإنسانية، وبني آدم. وقد سبق أن دللنا أن هذا النوع من التكریم ليس شيئاً مذكوراً في ظل الرؤية القرآنية.

ثم إن تضمن قانون الأمم المتحدة لضمان حرية الرأي والدين، إنما هو حرية اختيار الإنسان لما يعتنقه من الدين سواء أكان حقاً، أم باطلاً، فكل الأديان في المنظور الأممي البشري على مقام سواء. خلافاً للمنظور القرآني الذي يعتبر الدين الصحيح هو دين الإسلام في كل زمان ومكان.

هذا، وقد تبع ميثاق الأمم المتحدة لحقوق الإنسان جملة من القوانين الإضافية، كاتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة (Convention on the Elimination of All Forms of Discrimination Against Women: المعروفة اختصاراً باتفاقية (سيداو: CEDAW) عام 1980م، واتفاقية حقوق الطفل 1990م، والتي لم تخرج في مضمونها عن مفهوم التكریم الدنيوي للإنسان، والاعتناء بجوانبه الحياتية، هذا إن أعملنا حسن الظن حالة قراءة تلك القوانين، وإلا فقد حملت في طياتها كثيراً من المبادئ والقوانين المخالفة للعادات والتقاليد والقيم، الدينية والإنسانية، ثم إنها من حيث تطبيقاتها في العالم العملي نلاحظ فيها ذلك التعاطي النسبي، والبراغماتي النفعي في التوصيف والحكم والتفعيل، وليس المقام مقام نقد لها ودراسة لها على محك الدين والعلم والفطرة، إلا أننا نتخذها وسيلة لتلمس مفهوم التكریم الإنساني فيها.

ثم إن كان هذا الذي سبق تسطيره باختصار يمثل مفهوم تكریم الإنسان في المفهوم البشري لواحدة من أرق مؤسسات الفكر، وصناعة القرار على المستوى الدولي، والتي اجتمع فيها جمع كبير من المسؤولين والكفاءات العلمية من مختلف التيارات الفكرية، والمذاهب الدينية، هذا من جهة، ثم هي من جهة أخرى تنطلق من واقع عالمي معيش محسوس، بعد ما رآته عياناً ممن أحوال البشرية في العالم إبان الحروب العالمية، والإقليمية، وليست تنطلق من تصورات فلسفية، أو آراء مجردة، ومع كل ذلك كان ميثاق الأمم المتحدة بما فيه من حقوق أقصى ما يبلغه التصور البشري في توصيف وتفعيل التكریم الإنساني.

إذا كان هذا فلنا أن نتصور ما هو أبعد عن المنظور القرآني في تقرير حقيقة التكریم الإنساني حال مقارنته بالفلسفات الفردية، والآراء الشخصية. وأبعد من ذلك جميعاً تلك الآراء والفلسفات المعاصرة التي تبلورت في ظل التغيرات الكبيرة التي طرأت على فكر الإنسان المعاصر، فصار الإنسان المعاصر المُفكر يُفكر بنمط وأسلوب صُنِع له ليُفكر به فصار إلى قناعات مغلوطة، مغلوطة من جهة حقيقتها بسبب الغلط الذي وقع في مقدماتها، والغلط الناتج عن خلل مستثمر تلك المقدمات والمستنبط منها، فكما يقع الخطأ بسبب مقدمات البرهان، يقع أيضاً بسبب واضع تلك المقدمات، وطريقته في استنباط النتائج المبنية عليها.

ومزيداً في توضيح ذلك أقول إن الفلسفات القديمة، والنظريات الفلسفية في التاريخ الوسيط، سواء منها المتأثرة بالدين أو غير المتأثرة به، كانت لا يبتعد بعضها عن بعض في نتائج أحكامها، لأنها تنطلق من مقدمات مشتركة، منها أن الإنسان مخلوق، وأنه ضعيف عن بلوغ الكمال، وأن تمايزه الجنسي بين أفراد له علاقة

بحياته وحسن سيرها، وضرورة من ضرورياتها، وأن العقل هو الحكم، وأن الناس يتمايزون فيه من حيث السن ومن حيث الجنس. إضافة إلى اعتبارها مبدأ الدين مبدأ موجودا في حياة الإنسانية فلا يلغون اعتبار أثره في حياتهم. ومن طالع مختلف الآراء الفلسفية في مفهوم الأخلاق والقيم يلمس فيها التأثير بالعقل والدين، أو على الأقل عدم المعارضة بينهما(34).

ولما تغير الزمان وغيّرت كثير من المفاهيم فيه، وانتشرت في الناس وخاصة في العالم الغربي اللاديني كثير من أفكار الإلحاد ونظرياته، وإفرازاتها، زاد البون واتسع الفرق بين نظرة الإنسان المعاصر، ونظرة الإنسان قبله، فنظرية دارون التي تجعل الإنسان ذا نشأة ذاتية، موجودا وجودا عبثيا لا غاية فيه، هي ما فتح الباب أمام مذاهب العدمية، ومذاهب الإنسانية:

فمذهب العدمية الذي لا يقيم وزنا للحياة، ولا يجعل للإنسان فيها أي اعتبار فهو مخلوق لا معنى له. فكرامته وعدمها أمران متساويان. وفي الصعيد الآخر يقابله مذهب الإنسانية الذي يجعل الإنسان إله الوجود، ومركز الكون. ومحل كل تفكير، فكرامة الإنسان هي كرامة مقدسة إلى ما لا نهاية، وفوق كل غاية(35). إضافة إلى أن تركيز نظرية دارون على مبدأ التطور والارتقاء وبقاء الأصلح، والانتخاب الطبيعي، تبعه الحكم بالنسبية على كثير من القيم والأخلاق، فما كان يُرى سابقا صوابا وحقا قد يُرى اليوم غير ذلك، بما جعل التعاطي معها يختلف عما كانت عليه ممارسات الإنسان نفسه قبل انتشار مثل هذه الأفكار والقيم الإلحادية(36).

وكأوضح الأمثلة المعاصرة المشهودة، وفي ظل التسارع المحموم نحو أفكار يراود لها أن تنتشر، وأخرى يراود لها أن تنقرض لن نستغرب أن المثلية الجنسية التي كانت تهمة أخلاقية عند الغرب نفسه، قد أصبحت اليوم عنده شيئا مقبولا بل مقننا يدافع عنه، وتبرم له القوانين لتفعيله، وحمائته وضمانه كحق لفئة من الناس، ولن نستغرب إن صارت يوما ما مظهرا من مظاهر التكريم الإنساني.

المبحث الثالث: تقارير ومقاربات.

إن ما سبق تقريره في المبحثين السابقين يوردنا آخر مباحث هذا المقال للحديث فيه عن جملة من الاستنباطات والرؤى المأخوذة منهما، وهي ما أسعى لعرضه في جملة من النقاط، فأقول:

أولا: التكامل المعرفي والمنهجي في بناء الهداية القرآنية.

إن ما تقدم تقريره وعرضه ضمن الهدايات القرآنية في مفهوم التكريم الإنساني يأخذ قوته، ويستلهم برهانه، ويستجلب قطعية دلالاته من ذلك التكامل العلمي والمعرفي بين جملة من الأدلة القرآنية والنبوية، المدروسة وفق مناهج التفسير والتدبر والاهتداء القرآني، فبعد النظرة التفسيرية التحليلية المبيّنة على معنى آية سورة الإسراء، تأتي النظرة التفسيرية الموضوعية لتجلية الصورة، وتوضيح معنى التكريم من خلال جمع متعلقات دلالاته في آيات الذكر الحكيم، وانتهاء بالرؤية المقاصدية القرآنية التي جعلت مفهوم التكريم الإنساني في القرآن الكريم ذا أبعاد عدة.

كل ذلك يظهر بجلاء أهمية استجماع المفسر أو المهتدي بالقرآن الكريم لسائر تلك المناهج المعينة على الفهم السليم المتكامل، ثم يزداد يقينا في صواب قوله واستنباطه حينما تتفق دلائل الآيات النصية، مع مآلاتها

المقاصدية، فمقاصد القرآن الكريم حينها إطار ضابط، ومراقب شاهد على صواب الاستنباط والفهم، فالقرآن الكريم جاء لمقاصد كثيرة منها الكلية ومنها الجزئية، وقد نص جمع كبير من أهل العلم أن من مقاصد القرآن الكريم الكبرى، الإيمان بالبعث والنشور والحساب والإيمان بالآخرة وما فيها من وعد ووعد، وأنها هي الحياة الحق، بدأ من الغزالي رحمه الله في "جواهر القرآن" (37)، والزمخشري رحمه الله في "نفسيره" (38)، وابن العربي رحمه الله في "قانون التأويل" (39)، وغيرهم كثير (40)، وحينها تكون هي محل الاهتمام والرعاية، فلا يمكن بحال من الأحوال أن يكون من مقاصد القرآن الكريم الكبرى مقصد الاهتمام بالدنيا والسعي لها، والانهماك فيها والتطلب لها تطلبا يلغي المقصد الآخر، فقد قرأنا في آيات الذكر الحكيم وصف حال الدنيا ومنزلتها من الآخرة، ووصف من ركن إليها وألتهته عن الإيمان بالله واليوم الآخر، وقد تقرر في العقول السليمة أن لا تعارض بين مقاصد القرآن الكريم الكبرى، ولا تعارض المقاصد الكلية الكبرى بأخرى جزئية، وإنما ينظر في الجزئي بوجه من الجمع له مع الكلي، أو بالغائه واعتبار الكلي. وعلى هذا نرى في مفهوم القرآن الكريم للتكریم الإنساني انسجاما تاما مع المطلوب منه ككائن يعيش حياته لتستمر الحياة، ومكلف يستعد منها ليوم بداية حياته السرمدية الأزلية.

ثانيا: الرؤية القرآنية ضمان للوسطية.

القرآن الكريم كلام الله سبحانه الحكيم العدل، وهداياته هي سبيل الصلاح في الدنيا والآخرة، ومعاييره هي ضمان الوسطية في الرأي والفكر والعمل، وتبعا لهذا فتقرير مبدأ التكریم الإنساني في ضوء الهدايات القرآنية على السبيل والوصف الذي سبق بيانه يعطينها الصورة الوسطية لتلك القضية ومكوناتها (الحياة، الإنسانية)، ولإنسان متكامل الوجود روحا وجسدا. فردا وجماعة ومجتمعاً. فلا هو بالذي يقدها إلى حد المبالغة والغلو في اعتبارها، ورفعها فوق منزلتها، ولا هو بالذي يفارقها ويلغها إلى حد جفاء الرهبانية والفردانية المفسدة لنظام الحياة المتكامل، وحال الإنسان الاجتماعي. فالله كرم الإنسان بالعقل ليعمل به في شتى مجالات الحياة وخير البشرية فردا ومجتمعاً، لا لأن يجعل عقله سبيلا إلى مختلف شعب الفساد والطغيان، من تكبر على الحق، وظلم الضعيف، فضلا عن التكبر على الدين وشعائره والوحي ومسائله، وكرمه بالعقل ليهتدي به إلى منافع العلم والاختراع وتيسير سبل الحياة المختلفة، لا لأن يستعمل في تكريس الشر ووسائله.

والله سبحانه كرم الإنسان بتسخير الوجود له ليستفيد منه في خير حياته، على سبيل الوسطية من غير إسراف أو تقتير، ولم يكرمه به ليجعله محل قرار وزمان استمرار ومطية للتنافس المفضي إلى الحروب والنزاعات، والحرص على استنزاف خيراته على سبيل الجشع والاحتكار.

والله سبحانه كرم الإنسان فبث فيه غرائزه ونزواته فهي التي تضمن له رغبته في البقاء والعيش واستمرار الجنس البشري، لعمارة الأرض والاستخلاف عليها، واستمرار التدافع فيها، وأكرمه بمكملاتها وسبل تحصيلها على الوجه المشروع والنافع له، فليس من الوسطية أن يركن إلى شهواته ونزواته وغرائزه فيجعلها مقصده في حياته، ولا أن يصرفها في غير وجهها مما يفضي به إلى القضاء على جنسه وتعطيل استمرار نسله، فيتوقف سير الحياة وناموسها أو يتعثر عن كمال السير. ولا بد من لفت النظر هنا إلى أن كرم الله على ابن آدم بالعقل

والتمییز والإدراك كفیل بضبط تلك النزوات والغرائز ضبطا ذاتیا، كما یمكّنه من وضع قوانین لضبط ذلك على المستوى الجماعي، والمجتمعي، وإنما وقع الخلل فی البشریة لما لم تنضبط بوسطیة التكریم القرآنی للإنسان الذی جمع له بین طلب الدنیا بقدرها، وطلب الآخرة بقدرها.

ثالثا: الهدایات القرآنیة رؤیة مستقلة وذات صدارة.

إن مفهوم القرآن الكریم للتكریم الإنساني وما اتسم به من وسطیة وحكمة، من شأنه أن یصح كثيرا من المفاهیم المغلوطة والمنحرفة بقصد أو بغير قصد، ونعني بها تلك الأطروحات الفکریة التي تتراوح ما بین التصویر منحرفة والمقاربة مغلوطة.

إن مفهوم القرآن الكریم للتكریم الإنساني مفهوم رباني، من لدن حكیم علیم، فهو الذی سبق جمیع التصورات والذی یلغی كل المفاهیم، وهو المتصدر علمها، والمتبوع منها، وكل المقاربات الذهنیة البشریة ملغاة به، ومنسوخة به، ومؤخرة عند ذكره، وتابعة له غیر متقدمة علیه، ففضل الحقائق القرآنیة على المفاهیم البشریة كفضل الله سبحانه على خلقه. وعلى هذا فإن أي محاولة لقراءة الآیات القرآنیة، وهدایاتها الربانیة على النحو الذی یكرس لتلك المقاربات البشریة، یعد خیانة لله ولكتابه، وقد ابتلینا فی أزمنتنا المتأخرة بتتابع كثير من المفكرین على هذا النسق من التفكير، فما تظهر فی الناس فكرة إلا ومالوا بالقرآن والإسلام إلیها، وما خرجت علیها الدول العلمانیة المستقویة على الناس بالاستعمار والتقنیة بمذهب إلا وجعلوه مذهبا للإسلام، وما ظهر العالم الغربی بزی إلا وألبسوا الإسلام ذلك الزي، سعیا - فی ظنهم - إلى تلمیع الإسلام، وتصویره بالصورة الحسنه التي تجعله یوافق ویصلح لكل زمان ومكان ومذهب وتیار وفكر.

فإبان الفترة الاشتراکیة صور الإسلام والقرآن على أنه مذهب اشتراکی. ولما ظهرت القطبیة الرأسمالیة قالوا الإسلام رأسمالی. ولما تبنت الدول الغربیة - زعما باطلا - الدیمقراطیة قالوا الإسلام أبوها الذی أرسى أركانها وقواعدها. وفي زمن التحرر والحریات والتعددیة الدینیة قالوا قد كانت مكفولة فی الإسلام منذ أربعة عشر قرنا. وفي زمن الإنسانیة وتقдіس البشر قالوا لا أسبق من الإسلام والقرآن فی اعتبارها والأخذ بها.

وهكذا نجد المفاهیم الإسلامیة تتمايل كل مرة إلى ناحية، وتتبع كل مرة فكرة، وتكون فی كل مرة مسبوقه لا سابقه، وكل هذا من الباطل العاطل، الذی لا یقره مؤمن یؤمن بأن القرآن والإسلام دین الله العلیم الحکیم، الذی إنما منَّ به على خلقه لهدایتهم للسبیل الأقوم فی كل شیء فهو المتبوع لا التابع، وذلك متوقف على الاهتداء به وفق قانون الاهتداء السلیم، القائم على الفهم الصحیح للقرآن والسنة، دینا وشریعة، ثابتا ومتغیرا، نصا ومقصدا، وفق رؤیة متخصصة جماعیة تضمن اشتراك الآراء وتلاقح الأفكار وتكامل العلوم والمعارف الدینیة والدنیویة فی صناعة الهدایة القرآنیة الصحیحة.

هذا المعیار والمنهج هو الكفیل ببیان الحق والعدل المستكن فی الهدایات القرآنیة كما أرادها الله سبحانه، وهو الكفیل بحفظ الدین وحفظ فهمه، وسلامة تبلیغه لمن سیخلف. أما السعی فی تشكیل القرآن ومفاهیمه على ما یوافق الأفكار المتختلفة، والمتسارعة فی التغیر، فما هو إلا مزید مسخ للدين والهویة، وزعزعة للثوابت وتغیب للحقیقة.

رابعا: الهدایات القرآنیة شاهد على الزمان.

بات من الواضح لدى كل عاقل متابع لحياته وحياة العالم من حوله قريبا وقديما، بات واضحا لديه ذلك البون الشاسع والشرح الكبير، والانفكاك الواضح بين ما يقرره البشر من قيم أخلاقية، ومبادئ إنسانية، في إطار نظري فكري، وبين ما يمارسه هو نفسه في حياته فعلا وعملا، وليس بعيدا عنا شعار إحدى الدول الغربية الأوروبية الذي ملأت به آذان العالم وأسماعه (حرية إزاء ومساواة)، إلا أنها كانت أكبر الدول استعمارية ووحشية ودموية، وإرهابا وقمعا وتجهيلا وتضليلا، وشواهد ذلك في مستعمراتها الإفريقية واضح إلى وقتنا الحاضر. هي أنموذج للإنسان الذي يرتدي زي التحضر وقيمه وشعاراته، على جسد شيطان غادر، لا يتوقف يتجمل أمام الناس زورا وكذبا بأقوال وشعارات قد عزم لحظة قولها ورفعها على مخالفتها والدوس عليها. هي نموذج من نماذج الدول العظمى في عصرنا الحديث، التي ادعت زمنا طويلا رعايية حقوق الإنسان والبشرية، ونشر السلام والحرية والمساواة بين شعوب العالم، ولطالما سطرت في سبيل ذلك البنود ووقعت الاتفاقيات، ثم صارت على الملاءمة وصورة أول الناقض للعهد، والخائن للذمة، في مشهد صارخ بتكريس المبدأ الفرعون: (ما أريكم إلا ما أرى).

وحينها يقف العاقل مذهولا متحسرا لحال الكرامة الإنسانية أين هي؟ وكيف هي؟ وما سبيل خلاصها؟ ومن الذي سيحميها؟، في عالم لا يؤمن ساسته ومسؤولوه إلا بالمصلحة والمنفعة الذاتية، فقد صار من وُضَعها ليحرسها أول خائن لها. وهنا يمهمس صوت الحقيقة والدين والهدايات القرآنية في أذن كل مطالع للتاريخ ليذكره ويبث فيه الأمل ويذكره بالتاريخ الذي كان أصدق شاهد على أمة إسلامية ودول إيمانية قرآنية تعاقبت على الزمان شرقا وغربا، شهد لها أنها بلغت مبلغا عظيم في نشر العدل وسياسة الناس بالحق، يوم أن كان الناس سواء يحكم للمرؤوس من الرئيس، ويؤخذ الحق من المسلم للكافر، ويوزن الملك بميزان تحقيقه للعدل وأخذه بالقسط، وما ذلك إلا لما كانوا أمما تؤمن بالله ربا والقرآن دستورا وهداية، قولوا وفعلا وعملا.

خامسا: الهدايات القرآنية حفظ للبشرية.

إن المنظور البشري لمفهوم التكريم الإنساني، والقائم على العناية بجانبه المادي والجسدي، قد ألغى من الإنسان شقه ونصفه، وعنصرا كبيرا جدا مما يكونه، ألا وهو روحه، فصارت البشرية لذلك لا سعي لها إلا في سبيل جسد وشهوة وجمال ومال، غارقا في إشباع شهواته الجسدية، إلى حد اغتال فيه روحه وقتلها بين جنبه، ووأدأها بيديه، ويوما بعد يوم تغير منحنى حياته، فقد اعتاد جسده شهواته، فصارت بلا لذة وصارت حياته بلا معنى، ثم استهوته الشياطين وزينت له فعل أي شيء فليس ثمة شر وليس هناك ما هو قبيح فالأمور نسبية، وكل يراها برأي فازدادت حمى الجسد وسعار الشهوات، فمن الحرية الجنسية، إلى الخيانات الزوجية، وزنا المحارم، ومن اللوطية والمثلية وجنس القُصَر، إلى مفهوم الجندر والتحول الجنسي، ثم من حقوق المرأة إلى حقوق المثليين، ومن حق الإنسان في إنسانيته إلى حقه في حيوانيته وبهيمنته، ومن حقه في حياته إلى حقه في موته وانتحاره، فما فائدة هذه الدنيا، التي أولها شهوات بلا طعم وآخرها حياة بلا غاية، فليس بعد ذلك إلا الفناء وتغيير نمط الحياة إلى اللاحياة. كل هذا إنما نتج لما نظرنا إلى الإنسان جسدا فقط.

وفي هذا المنعرج الحياتي، والمنزلق الفكري تأتي الهدايات القرآنية بتكامل رؤيتها للتكريم الإنساني، ووفق منظورها الشامل الذي يلحظ في الإنسان شقي تكوينه وهما روحه وجسده، فيعطي الجسد ما يقيمه ويصلح وينفعه، ويعطي الروح ما يحييها ويرشدها إلى غايتها، ويجاب عن تساؤلاتها، ويشرح لها حالها وغايتها ومآلها. فهي بذلك أنجح طريق وأنجع سبيل إلى حفظ البشرية والإنسانية، وسلامة حياتها روحا وجسدا، وروحا.

خاتمة:

هذا آخر ما أردت تسطيره وكتابته في هذا الموضوع الحري بمزيد من التحليل والتفصيل، وجمعا لبعض خلاصاته وتوصياته في هذه الخاتمة أقول:

* كان من فوائد الوقوف على الجوانب اللغوية في آية سورة الإسراء التأكيد على دلالات ألفاظها، فكلمة (بني آدم) نص في إرادة عموم الناس كفار ومؤمنين. كما أن لفظ (حملناهم) فيها لما لم يذكر في الآية متعلقه الحمل ناسب أن يعمم في كل ما يصلح له. وأخيرا لفظ (الطيبات) الذي شمل كل ما رزق ابن آدم ولا يصح قصره على المأكّل فقط.

* دلت آية الإسراء وحدها على عظيم منته الله على عموم عباده، ورحمته بهم، فما تضمنته من نعم وعطايا شيء يفوق تخيلك يا ابن آدم.

* ظهر في البحث فائدة أعمال مناهج التفسير، وتكامل استظهار المتأمل للهدايات القرآنية بالتفسير التحليلي والموضوعي الكفيل بالبيان الصحيح والشامل لمفهوم التكريم الإنساني، وغيره من المفاهيم القرآنية. * أوضح البحث أن التكريم الإنساني في الرؤية القرآنية معراج ذو منازل ومراتب ودرجات، فأولها تكريمه كرما دنيويا، وأعلاه تكريم الكرم الديني الأخروي، وبين هذا وذاك منازل كثيرة.

* دلت فقرات البحث المتعلقة بالتفسير الموضوعي للآيات على صواب ما أخذ منها من معنى لاجتماع معاني كثير من الآيات القرآنية بعدة أوجه في الدلالة عليه، موافقة ما تقرر من مفهوم التكريم الإنساني في البحث.

* دلت فقرات البحث على صواب ما عرض فيه من معنى لمفهوم التكريم الإنساني في القرآن الكريم لاندراجة ضمن مقاصد القرآن الكريم الكلية والقطعية، وتطابقه مع ما دلت عليه السنة النبوية.

* أظهر البحث جملة من جوانب المادية المحضة الموجودة في قانون حقوق الإنسان والذي يعتبر أرقى ما وصلته البشرية في مسألة التقنيين لكرامة الإنسان والإنسانية.

* نبه البحث على ضرورة الاعتناء بالوعي القرآني والمفاهيم القرآنية لضمانها لمبدأ الوسطية في صناعة الإنسان روحا وجسدا.

* نبه البحث على ضرورة تقديس المفاهيم القرآنية والاعتناء بالهدايات القرآنية في جعلها قانون الحياة الأول وتقديمها على كل الرؤى الفكرية البشرية الفردية منها أو الجماعية.

وأخيرا وختاماً هذا ما تيسر تسطيره، وذكره في هذا البحث، وهذه القضية وأسأل الله تعالى التوفيق في القول والفعل، والسداد في الرأي والعمل، وهو حسبنا ونعم الوكيل وصلى الله وسلم على نبينا محمد، والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن أم قاسم، الجفی الدانی، المحقق: د فخر الدین قباوة -الأستاذ محمد نندیم فاضل، دار الكتب العلمیة، الطبعة: الأولى، 1413 هـ - 1992 م
- الأمم المتحدة، الإعلان العالمی لحقوق الإنسان، نسخة مع صور موضحة طبعت سنة 2015.
- البخاری، الجامع الصحیح، ت مصطفی دیب البغا، دار ابن کثیر، ط3، 1407 هـ - 1987 م.
- الترمذی، جامع الترمذی، تحقیق: أحمد محمد شاکر وآخرون، الناشر: دار إحياء التراث العربی - بیروت.
- الواحدی، التفسیر البسیط، المحقق: أصل تحقیقه فی (15) رسالة دکتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمیة من الجامعة بسبکه وتنسیقه، عمادة البحث العلمی - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامیة، الطبعة: الأولى، 1430 هـ.
- أبو حیان، البحر المحیط، المحقق: صدقی محمد جمیل، دار الفکر - بیروت، 1420 هـ.
- أبو حیان، ارتشاف الضرب، تحقیق وشرح ودراسة: رجب عثمان محمد، مراجعة: رمضان عبد التواب، الناشر: مكتبة الخانجی بالقاهرة، الطبعة: الأولى، 1418 هـ - 1998 م.
- ابن جزی الکلبی، التسهیل لعلوم التنزیل، المحقق: عبد الله الخالیدی، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبی الأرقم - بیروت، ط1، 1416 هـ.
- جلال الدین سعید، معجم مصطلحات الفلسفة، دار الجنوب للنشر - تونس، 2004 م.
- ابن الجوزی، زاد المسیر، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربی - بیروت، الطبعة: الأولى - 1422 هـ.
- الرازی، تفسیر مفاتیح الغیب، دار إحياء التراث العربی - بیروت، الطبعة: الثالثة - 1420 هـ
- الزبیدی، تاج العروس، المحقق: مجموعة من المحققین، دار الهدایة.
- الزمخشري، الکشاف، دار الكتاب العربی، ط3، 1407 هـ.
- السعدي، تیسیر الکریم الرحمن، ت اللویحق، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420 هـ - 2000 م.
- الشعراوي، تفسیر الشعراوي، الناشر: مطابع أخبار الیوم.
- الشاطبی، الموافقات، تحقیق: مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة الأولى 1417 هـ/ 1997 م.
- صباح قلامین، محاضرات فی فلسفة الأخلاق، مرکز جیل البحث العلمی، لبنان طرابلس، مای 2015.
- عبد الله العجیری، شموع النهار، مرکز تکوین، الطبعة الرابعة، 1441 هـ - 2020 م.
- ابن العربی، قانون التأویل دراسة وتحقیق: محمد السّلیمانی، الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلامیة، جدّة، مؤسّسة علوم القرآن، بیروت، الطبعة: الأولى، 1406 هـ - 1986 م.
- ابن عطیة، المحرر الوجیز، ت عبد السلام عبد الشافی، دار الكتب العلمیة، ط1، 1413 هـ - 1993 م.
- الغزالی، جواهر القرآن، المحقق: محمد رشید رضا القبانی، دار إحياء العلوم، بیروت، ط2، 1406 هـ - 1986 م

- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ت عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ-1979م.
 - الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ت مركز الرسالة ...، مؤسسة الرسالة، ط3، 1433هـ-2012م.
 - القشيري، لطائف الإشارات، المحقق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، الطبعة: الثالثة
 - محمد الأمين الهري، حدائق الروح والريحان، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، الناشر: دار طوق النجاة، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م.
 - محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر تونس، 1984 هـ.
 - محمد عزت دروزة، التفسير الحديث، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، الطبعة: 1383 هـ.
 - مسلم، الجامع الصحيح، إ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.
 - مصطفى المراغي، تفسير المراغي، الناشر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، 1365 هـ - 1946 م.
 - مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية، المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ.د: الشاهد البوشيخي، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008 م
 - ابن ماجه، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي
 - الماوردي، النكت والعيون، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان.
 - وهبة الزحيلي، التفسير المنير، دار الفكر المعاصر - دمشق، الطبعة: الثانية، 1418 هـ.
 - مواقع الأنترنت:
 - أشنونة / <https://ar.wikipedia.org/wiki/>
 - . تاريخ- حقوق- إنسان/ <https://ar.wikipedia.org/wiki/>
 - الدين- الفلسفة - أي - علاقة - بينهما <https://www.harmoon.org/researches/>
- الحواشي:**

(1)- انظر: ارتشاف الضرب، أبو حيان، (2364/5). الجنى الداني، ابن أم قاسم، (255).

(2)- انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، (472/3). البحر المحيط، أبو حيان، (84/7).

(3)- انظر: تاج العروس، الزبيدي، (337/33).

(4)- لطائف الإشارات، القشيري، (359/2).

(5)- التحرير والتنوير، ابن عاشور، (166/15).

(6)- انظر: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، (405/4).

(7)- انظر: القاموس، الفيروز آبادي، (1043).

(8)- تاج العروس، الزبيدي، (173/30).

(9)- التحرير والتنوير، ابن عاشور، (166/15).

- (10)- حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري، (191/16).
- (11)- انظر: تفسير الشعراوي، الشعراوي، (8679/14). التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، (407/3).
- (12)- انظر: البحر المحیط، أبو حیان، (82/7، 84). التحرير والتنوير، ابن عاشور، (/15).
- (13)- انظر: النكت والعيون، الماوردي، (257/3). زاد المسير، ابن الجوزي، (39/3).
- (14)- انظر: أبو حیان، البحر المحیط، (84/7).
- (15)- انظر: تفسير الشعراوي، الشعراوي، (8679/14-8680).
- (16)- انظر: تفسير الشعراوي، الشعراوي، (8679/14-8680).
- (17)- لطائف الإشارات، القشيري، (360/2) بتصرف.
- (18)- انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي القيسي، (4248/6). البسيط، الواحدي، (402/13). زاد المسير، ابن الجوزي، (40/3).
- (19)- انظر: تفسير المراغي، المراغي، (75/15). التفسير المنير، الزحيلي، (121/15). مع شيء من الإضافة.
- (20)- تيسير الكريم الرحمن، ابن سعدي، (463).
- (21)- كما قد يفهم من كلام ابن عاشور رحمه الله في تفسيره لهذه الآية (165/15).
- (22)- أخرجه الترمذي في جامعه (2322)، وغيره، وحسنه الألباني في صحيح جامع الترمذي (533/2) وغيره.
- (23)- أخرجه الترمذي في جامعه (2320)، وابن ماجه في سننه (4110)، قال الترمذي: "هذا حديث صحيح غريب.."، وصححه الألباني في صحيح جامع الترمذي (532/2).
- (24)- أخرجه مسلم في صحيحه (725).
- (25)- أخرجه البخاري في صحيحه (3250).
- (26)- أخرجه البخاري في صحيحه (2796).
- (27)- انظر في تقرير هذا المعنى ما كتبه عبد الله العجيري في كتابه "شموع النهار" تحت عنوان: المستوى الثاني النزعة الأخلاقية، (57) وما بعدها.
- (28)- انظر: أشنونة / <https://ar.wikipedia.org/wiki/إنسان> / تاريخ - حقوق - إنسان / <https://ar.wikipedia.org/wiki/إنسان>
- (29)- الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الأمم المتحدة، نسخة مع صور موضحة طبعت سنة 2015، (3).
- (30)- الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الأمم المتحدة، (1).
- (31)- الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الأمم المتحدة، (4).
- (32)- الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الأمم المتحدة، (التمهيد iii).
- (33)- الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الأمم المتحدة، (التمهيد iii).
- (34)- انظر: محاضرات في فلسفة الأخلاق، صباح قلايين، مركز جيل البحث العلمي، لبنان طرابلس، ماي 2015، (61). ومقال جيد على النت بعنوان: الدين - الفلسفة - أي - علاقة - بينهما <https://www.harmoon.org/researches>
- (35)- انظر: معجم مصطلحات الفلسفة، جلال الدين سعيد، (62، 63، 286-287).
- (36)- انظر في تقرير هذا المعنى ما كتبه عبد الله العجيري في كتابه "شموع النهار" تحت عنوان: المستوى الثاني النزعة الأخلاقية، (57) وما بعدها.
- (37)- (24-23).
- (38)- (1/1).
- (39)- (542-541).
- (40)- كالرازي في تفسيره (156/4)، وابن جزي الكلي في تفسيره (14/1)، والشاطبي في الموافقات (204/4).